الشعر

في المعارك والحروب

لمحمد عبد الغني حسن

ذكّرني المقطوعة الشعرية الانجليزية « في سهول الفلاندرز » بموضوع لا تفرغ مادة الكتابة فيه ولا ينتهي أمد الحديث عنه ، وهو موضوع الشعر والحرب . وهذه المقطوعة لطبيب كندي اسمه (جون ماك راي) كان ضابطاً في الجيش البريطاني في الحرب العالمية العظمى وشهد بعينيه هول المعركة التي ظلت ستة عشر يوماً أسفر فيها دويّ القنابل ، ودمدمة المدافع عن سكون الضحايا وهجمة الموت في مقابر فسيحة تُرى فوقها الصلبانُ صفوفاً إثر صفوف (١)

ولعلّ هذه الأيام هي أكثر الأوقات مناسبة للكلام عن الشعر والحروب ، فنحن نقرأ كل يوم خبراً عن معركة ، أو نسمع وصفاً لموقعة ، أو نرى أثراً لغارة في البر والبحر ، والسهل والوعر ، والقمة والسفح . ونرى عروشاً تزول ، وممالك تدول ، وأبرياء يصلَوْنَ بحرّ النار ، وهم لم يكونوا يوماً من جناة الحروب ولا أنصار القتال

وقد يتشعب بنا الحديث وتتسع مسالك القول لو أخذنا نحصي المعارك العالمية من فجر التاريخ وبدء التدوين وما قيل فيها من شعر ، أو ظهر فيها من شعراء . فذلك يقتضي احاطة شاملة ومعرفة تامة ، وذلك ما لا ندعي لأنفسنا العلم به او الاقتدار عليه

الا أنّ المطالع في الأدب العربي ، والقارئ لتاريخ العرب في جاهليتهم وإسلامهم يصادف كثيراً من شعر الحروب ، وتقع عينه خلال قراءاته على أبيات متناثرة أو قصائد مطولة قيلت في إثارة حرب ، أو نجدة صريخ أو في وصف معركة أو في التفاخر بالشجاعة المبذولة ، والذمة الماضية ، والبلاء الحسن

ولقد كان للعرب في جاهليتهم حروب كثيرة وأيام مشهورة ذكرتها كتب

---

(١) من مقال في مجلة النيويورك تيمس عدد يناير سنة ١٩٣٨ بقلم برنهارد راجر

التاريخ والأدب . وعدّ منها ابن رشيق القيرواني صاحب كتاب العمدة خمسة وخمسين يوماً [١] . واكتفى بما ذكر تاركاً ما بقي منها لمكتب الخاصة بذلك الموضوع . ولا يدخل في ذلك العدد ايام الرسول ووقائعه مع المشركين فقد أفردت لها دراسات خاصة في كتب السيرة ومراجع التاريخ الأولى كالطبري وابن هشام

والحرب نكبة يبتلى بها العالم وتنكب بها الأمم ، ويشترك في احتمال ضررها المحارب والمسالم والقاعد والمهاجم ، ويُذكيها أناس ويصلى نارها قوم براء

ولا شك ان العرب من قديم ذاقوا مرارتها واحتملوا مرّتها . ولذلك قالوا فيها : الحرب عشوم ، لأنها تنال غير الجاني . وسأل عمر بن الخطاب عمرو بن معديكرب الزبيدي عن الحرب فقال : « مُرة المذاق اذا تلصت عن ساق ، من صبر فيها عُرف ، ومن ضعف عنها تلف »

ولقد وصفها الحكيت الشاعر ببيتين صادقين : [٢]

الناس في الحرب شتى وهي مقبلة ويستوون اذا ما ادبر القُبُلُ
كلٌّ بأمنيتها طَبٌّ مولعةٌ والعالمون بذي غُدوتها قُلُلُ

وصوّر شاعر آخر قيامها وهي فتية تُفري بالسلب والنهبة ، وتتكرها بعد ذلك كأنها عجوز شمطاء . فأحسن التصوير ، وأبدع التشبيه حيث قال [٣] : —

الحرب أول ما تكون فتيةً تسعى بزينتها لكل جهول
حتى اذا استعرت وشبّ ضرامها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزّت رأسها وتنكرت مكروهةً للشمّ والتقبيل

وما أشبه الحرب بالحب مع فارق في القياس وخلاف في النتيجة ، فأولها يكون لجاجة وكلاماً . وتاليهما يكون مجانة وتسلّياً . ولكن الحب اذا تمكن صار شغلاً شاغلاً ، والحرب اذا استعرت صارت شرّاً وبلاءً . وما أصدق حينئذٍ قول نصر بن سيار فيها :

فان النار بالعودين تذكى وان الحرب أوّلها الكلام

(١) الجزء الثاني من « العمدة » ص ١٦٠ طبعة أمين هندية بمصر
(٢) عن عيون الاخبار ج ٢ ص ١٢٧ (٣) عن العقد الفريد وعيون الاخبار

فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهام

***

والشعر يحضّ[1] في الحروب يحرك النفوس ، ويمكن السخائم من القلوب ، ويدعو الجبان فيقبله شجاعاً ويصيره مقداماً ، ويذكره الورع[2] الهيوب فينقلب أسداً تسيل الدماء على صدره ولا يتدمى على العقبين كَلْمُه . ولقد تشجع معاوية بن أبي سفيان وصبر على قتال علي بن أبي طالب حينما ذكر أبيات الشاعر عمرو بن الأطنابة[3] : —

أبت لي همتي وأبى بلائي وأخذي الحمدَ بالثمن الربيح
وإقدامي على المكروه نفسي وضربي هامة البطل المشيح
وقولي كلما جشأت وجاشت: مكانك تُحمدي أو تستريحي
لأدفع عن مآثر صالحاتٍ وأحمي بعدُ عن عِرْضٍ صحيح

وأغرب من هذا في باب إثارة الشعر للنفوس وتحريكه السخائم أبيات قالها سعد بن مالك بن ضبيعة يحرّض فيها بالحارث بن عُبّاد لانهُ ترك حلفاءهُ من بكر يقاتلون بني تغلب وتخلف عن القتال قائلاً « لا ناقتي فيها ولا جملي » . ولقد دفعت هذه الابياتُ الحارثَ بعد تخلفه الى القتال دفعاً وهي غير متعاتبة[4] : —

يابؤس للحرب التي وضعت أراهط فاستراحوا
الحربُ لا يبقى لجا حها التخيُّلُ والمراحُ
الاّ الفتى الصبار في النجدات والفرسُ الوقاح
والدرعُ الحصداء والبيض المكلل والرماح
كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر الصراح
فلهمُ بيضات الحدو رِ حناك لا النعمُ المراح
بئس الخلائف بعدنا أولادُ يشكرَ واللقاح
من صدَّ عن نيرانها فانا ابن قيس لابراح

(١) الحضّ كوزن منبر عرد تحرك به النار اتيجه (٢) الجبان (٣) عن عقد الفر وعيون الاخبار (٤) عن حماسة أبي تمام ج ١ ص ١٩٤ طبع مصر

صبراً بني قيس لها حتى ترجعوا او تراجعوا
ان السوائل خلفها بإناقه الاجل المتاح
هيهات حان الموت دو ن الفوت وانتضي السلاح
كيف الحياة اذا خلت منا الظواهر والبطاح ؟
أين الأعزة والأسنة عند ذلك والسماح ؟؟

ومن عجائب الأمور أن الحارث بن عباد هذا هو الذي أثار بشعره القوي بني بكر على بني تغلب ليأخذوا بثأر ابنه بجير الذي قتله مهلهل . وكان قد اعتزل القتال ومال الى السلام . فلما جاءه مقتل ابنه لم يجد الا الرمح والشعر داعياً . وصار شعره في القبائل — قبائل بني بكر — عرضاً على القتال ، مهيجاً للنفوس ، مملأ في حنق الوالد المفيظ ، وسخط الشيخ المقدور به قيامهُ الى الحرب ، داعياً بفرسه (النعامة) قائلا

قرّبا مربط النعامة مني لقحت حرب وائل عن حيال
فلسعي لأنتلنّ (بجير) عدد الذرّ والحصى والرمال
قرّبا مربط النعامة مني ليس قولي يراد لا بل فعالي
يا بجير الخيرات لا صلح حتى تملأ اليدُ من رؤوس الرجال
لم أكن من جُناتها علم اللـ ـهُ واني لحرّها اليوم صالي

وما كذب الشاعر ولا افترى . فقد كان فعالا لا قوالا ودخل الحرب وخاض المعركة آخذاً نفسه بالوعد الذي وعد ، والعهد الذي قطع ، وهو ألا يتم الصلح حتى تملأ الأباطح بالرؤوس

***

وقد يجمع الشاعر الى مهمة الإثارة في الحرب مهمة تخذيل العدو ، والفت في عضده ، واشاعة التخويف في جوانب نفسه حتى لا يقدم على محاربة قومه ومقاتلة أهله . ومهمة التخذيل هذه تقوم بها الآن مكاتب الدعاية ، الا ان هذه سبيلها النثر وتلك سبيلها الشعر والغرض في الحالين واحد والغاية في العهدين متحدة . واسلفهم اتخذوا الشعر في العصور الأولى لذلك نظراً لمكانته في النفوس وموقعه في

القلوب وأثره في الاسماع ، ولأن الشعر كان طاغياً على النثر غالباً عليه ، وكان له دونه المحل والمقام ، والمنزل والمكان . وأحسن مثال يحضرني الآن لهذا النوع من الشعر أبيات قالها ودّاك بن ثميل المازني وكان بنو شيبان أرادوا ابعاد قومه — بني مازن — عن ماء لهم فأخذ الشاعر يهدد الاعداء ويخذّلهم ويصور قومه في صورة الأبطال الذين لا تخمد شوكتهم ولا تعز قناتهم قائلاً (١)

رُويدَ بني شيبان بعض وعيدكم تُلاقوا غداً خيلي على صفوان
تُلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى اذا ما غدت في المأزق المتداني
عليها الكماة الغرُّ من آل مازن ليوث طعان عند كل طعان
تلاقوهمُ تنمرفوا كيف صبرهم على ما جنت فيهم يدُ الحدثان
مقادم وصّالون في الروع خطوهم بكل رقيق الشفرتين يماني
اذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهمو لأية حرب أم بأي مكان

ولا محسٌ كبير فرق بين وصفه لخيله وجنوده وصبرهم على القتال وسيوفهم اليمانية القاطعة وبين وصف المتحاربين اليوم لما عندهم من مذخور العدد ومطوي العتاد

وقد يكون من علاقة الشعر والحرب الفخر الذي نراه كثيراً في كتب الأدب وهو ظاهرة تلفت النظر في الشعر العربي . وقلّ أن نجد لذلك نظيراً في آداب الأمم الأخرى . ويكون هذا الفخر بالشجاعة ذا قيمة لو لم يجاوز الحد المعقول أو يجنح الى الاغراق في المبالغة . ويكون أقرب الى الصدق لو عرف عن الشاعر ميل الى الفروسية أو اخلاص في البلاء . وقد كان ذلك واقعاً في الشعر الجاهلي وعصر الاسلام الاول ، اللهمّ الا بعض الشعراء الذين عرفوا بشجاعة اللسان وجبن القلب كحسان بن ثابت . فقد كان في لسانه جرأةٌ وفي قلبه تهيب

أما في العصور المتأخرة في الاسلام فقد صار الشعر تقليداً لما قاله الاوائل وترديداً لما تناولوه من المعاني . وصرنا نجد الفخر بالشجاعة مثلاً صناعةً تصنع ، وألفاظاً تردّد . ولو لم يكن لصاحبها من صدقها نصيب كما يقول ابن سناء الملك : —

(١) ص الحماسة لابي تمام

سواي يهاب الموت أو يرهب الردى وغيري يهوى أن يعيش مخلدا
ولكنني لا أحذر الموت ان سطا ولا أرهب الموت الزؤام اذا عدا

ويغرق بعد ذلك في الفخر الكاذب . وهو فخر — فيما أظن — يدعو اليه الشعور بالنقص فيقول : —

وأنك عبدي يا زمان وانني على الرغم مني أن أرى لك سيدا

ومن أصدق الفخر بالشجاعة والتحدث بالبطولة ما ذكره عنترة العبسي عن نفسه وصدق بلائه في الحرب واتجاه الأنظار اليه وثباته على جواده في معلقته التي يقول فيها : (١)

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذامرون كررتُ غير مذمَّم
يدعون عنتر والرماحُ كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بغرة وجهه ولبانه حتى تسربل بالدم
فازورَّ من وقع القنا بلبانه وشكا اليَّ بعبرة وتحمحُم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان ، لو علم الكلام ، مكلمي

ولا يقلّ عن عنترة صدقاً في الفخر بالشجاعة في الحرب وصدقاً في التعبير والوصف حينا يلتقي الجمعان — الشاعرُ الفارس قتادة بن مسلمة الحنفي الجاهلي الذي يصوّر معركة (جيرحان) خير تصوير حين يقول (٢) : —

قاتلْتهم حتى تكافأ جمعهم والخيلُ في سَبَل الدماء تعومُ
اذ تتقي بسراة آل مُقاعس حدُّ الأسنة والسيوف — تميم
لما التقى الصفان واختلف القنا والخيل في نقع العجاج أزوم
في النقع ساهمة الوجوه عوابس وبهنَّ من دعس الرماح كلوم
يُمست كبشهمُ بطعنة فيصلٍ تهوى لحر الوجه وهو دميم
ومعي أسودٌ من حنيفة في الوغى للبيض فوق رؤوسهم تسويم (٣)
قوم اذا لبسوا الحديد كأنهم في البيض والحلق الدلاص نجوم

وهناك نوع من الشعر كان له في ساح الحروب مكان أي مكان. وهو الأراجيز

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي (٢) الحماسة ج ١ ص ٣٢٠ (٣) علامات

التي ينشدها المحارب او المحاربون . وأغلب الظن عندي أنها كانت تنشد على توقيع خاص لم يصل الينا علمه وهذه الأراجيز مبثوثة في كتب التاريخ . ويجد القارىء كثيراً منها في كتب المغازي والفتوح . وأغلبها كان يستعمل في التحضيض على الحرب والاستمساك بالصبر حتى يكتب الفوز ، ويتم النصر

ولقد قيل في الجاهلية من هذه المرتجزات كثير، وقيل في الاسلام كثير كذلك حتى لتجد الكثير منها مشتركاً في اللفظ هنا وهناك، فلا تكاد تعرف القائل الحقيقي والراجز الأصلي . وبعض الأمثلة تكشف عن ذلك ، ففي واقعة ذي قار التي كانت بين العرب والفرس قبل الاسلام يقول حنظلة بن ثعلبة مرتجزاً [1] : —

القوس فيها وتر عُرُدُّ مثل ذراع البكر او أشدُّ
قد جعلت أخبارُ قومي تبدو أن المنايا ليس منها بُدُّ

ويقول أيضاً

يا قوم طيبوا بالقتال نفسا أجدر يوم أن تفلوا القُرسا

والبيت الاول مما قاله الحجاج بن يوسف الثقفي في عصر بني أمية مهدداً متوعداً أهل الكوفة [2]

وفي وقعة ذي قار نفسها وقفت امرأة عربية تحضض الناس وتقول مخاطبة الرجال من قومها [3] : —

إن تهزموا نُعانقْ ونفرش النمارقْ
او تهربوا نفارقْ فراق غير وامقْ

ولكن ابن هشام [4] صاحب السيرة النبوية يذكر أن هنداً بنت عتبة وقفت تحرّض الرجال على القتال في غزوة (أُحد) بهذه الأبيات نفسها مع استبدال كلمة تهزموا بكلمة « تُقبلوا » . وهند بنت عتبة هذه هي المشركة التي بقرت بطن حمزة عم النبي في غزوة أُحد وأخرجت كبده فلاكتها فلم تستطع إساغتها فلفظتها من فمها وعلت على صخرة ترتجز منتشية من المسلمين :

(١) الطبري جـ ٢ ص ١٥٤ (٢) كتب الادب (٣) الطبري جـ ٢ ص ١٥٣
(٤) سيرة ابن هشام ٣ ص ١٣

نحن جزيناكم يوم بدر والحربُ بعدَ الحرب ذاتُ سُعر
ما كان عن عتبة لي من صبر ولا أخي وعمّهِ وبكري
شفيتُ نفسي وقضيتُ نذري شفيتُ — وحشيُ — غليل صدري
فشكر وحشيٍ عليَّ عمري حتى تَرِمَّ[1] أعظمي في قبري

ولكن امرأة من المؤمنات المشتركات في الوقعة لم تستطع صبراً على هذا الرجز الذي قيل في وسط المعركة شفاء لغليل الصدر ، فردّت عليها من تحجزة : —

خزيتِ في بدر وبعد بدرِ يا بنت وقّاعٍ عظيم الكفرِ
صبّحك الله غداة الفجرِ م الهاشميين الطوال الزُّهرِ
بكل قطّاعٍ حسامٍ يفري حمزةُ ليثي وعليٌّ صقري
إذ رام شيب[2] وأبوك عَمْدي لخضبا منهُ ضواحي النحر
ونذرك الشوهاء شرُّ نذرِ

***

ومن شعر الحروب ما قيل في وصف المعارك وصفة المواقع : وأول ما يخطر على البال من ذلك قصيدة أبي تمام التي يمدح فيها المعتصم ويذكر عمورية ويصف النار والدخان فيها فيبدع كل الإبداع في هذه الأبيات : —

لقد تركتَ أميرَ المؤمنين بها للنار يوماً ذليل الصخر والخشبِ
غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحىً يغله وسطها صبحٌ من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة وظلمة من دخان في ضحىً شحب

وللشاعر السري الرفاء — من شعراء القرن الرابع الهجري — شعر كثير في المعارك والحروب ولقد كان عصره عصر نضال مع الروم . ولا تخلو مدائحه الأمراء من وصف دقيق للمعارك التي خاضوا غمارها واصطلوا بنارها . وكان أكثر الأمراء من ذلك نصيباً سيف الدولة بن حمدان الأمير المحارب ، والبطل المجاهد . وتجيء بائية السري يصور فيها موقعة بين سيف الدولة والدمستق يقول فيها[3] : —

(١) تصير رميمة نخرة (٢) شيب أصله شيبة ، على حذف تاؤه ترخيماً
(٣) ديوان السري الرفاء طبع القدس ص ١٨

لما تراءى لك الجمع الذي زحمت أقطاره ونأت بعداً جوانبهُ
تركتهم بين مصبوغ ترائبهُ من الدماء ومخضوب ذوائبهُ
فحائرٌ وشهابُ الرمح لاحقُهُ وهاربٌ وذباب السيف طالبهُ
يهوي اليه بمثل النجم طاعنهُ ويفتحيه بمثل البرق ضاربهُ
يكسوه من دمه ثوباً ويسلبهُ ثيابه ... فهو كاسيه وسالبهُ

ولا أبالغ اذا قلت أن هذه (اللوحة الشعرية) لمعركة حربية لا تقل صدقاً ولا روعة عن (لوحة زيتية) لمعركة حربية من لوحات السير مويرهد بون أو المستر روبرت أوستين من مصوّري الحرب الحديثة المشهورين

***

وما دامت الحروب قائمة، وطبائع الطمع والجشع بين البشر مستحكمة متأصلة فسيظل الشعر الحربي قائماً: — يحض على القتال، ويرثي الأبطال، ويصوّر من أهوال الحرب ما لا سبيل الى تصويره الاّ بأقلام الشعراء، ويعلي من شأن النفوس النبيلة الكريمة التي تموت فداء عن وطن أو ذياداً عن حق، ويحض على السلام ... نعم يحض على السلام لو سمعت الآذان المتكبرة، أو لانت القلوب المتحجرة

وفي العصور الحديثة نجد في الحروب شعراً رائعاً قويّاً. وقصيدة شوقي التي عنوانها: صدى الحرب [1] في وصف الوقائع العثمانية اليونانية مملوءة بالصور الفائقة التي أجاد شوقي تصويرها كأنه — رحمهُ الله — كان مشتركاً فيها أو آخذاً بنصيب المجاهد منها

ولمعروف الرصافي الشاعر العراقي قصيدة عنوانها «الحرب في البحر» يصور بها واقعة «توشيما» بين الروس واليابان تصوير من رأى وعاين لا تصوير من أنبيء وخُبِّر. اسمعه يصف البارجة بقوله [2]:

كل مَتخَّارة اذا حركت دفّا عَبا خضخضت به القاموسا
مُذ بنوها لهم كتيبة حرب نحذت كل مدفع ناقوسا
عرش بلقيس في المناعة لكن قد حكت في احتشامها بلقيسا
ألبسوها من الحديد وشاحاً فتهادت على العباب عروسا

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٣٠ (٢) ديوان الرصافي جـ ١ ص ١٣١

ولقد كانت الحرب العالمية العظمى سنة ١٩١٤ وحياً لكثير من الشعراء. ومنهم ولي الدين يكن الذي يقول فيها [1]:

ضاقت ميادين القتا ل عن المضارب والخيام
وتدافعت لجج الدما ء تصبُّ أبحرها الطوامي
عند من وادٍ لوا دٍ في القدافد والتوامي
تسمو غواربها بها بين اضطراب وارتطام
فكأنما الطوفان قد أوفى ليعاد قدام
من يطلب منهُ اعتصا ماً يمسِ من غير اعتصام
فتلفعت زهرُ المدا نُ بالدخان وبالضرام
وتوافت من عزها آثار أسلاف عظام
فكأنها بين الربو ع وقد عفت بمنى الرجام
جثثٌ على جثث عملت مثل الأكام على الأكام
قيمٌ أوصالٌ مزيلةٌ وأكبادٌ دوامي
في مشهد أهواله أهوالُ ساعات القيام
بين القنابل والقنا والموت مختلف المرامي
والجند دامية الظبي والخيل دامية الحوام
تسمو جباهٌ ثم تستفصلُ بين أمواج الزحام
متعرضات للحيا م ولم أضحية الحيام

ولجميل صدقي الزهاوي شعر كثير في الحرب وويلاتها كمقطوعته «الحرب» ص ١١٢ من ديوانه. ومقطوعته الأخرى «مشهد من الحرب الكبرى» ص ١١٤ وغيرها. وكلها لا يخرج عن تصوير الحرب في أبشع صورها وأفظع مناظرها

وبعد فقد اشترك الشعر في إثارة الحروب قديماً. ورأيناه اليوم يتجه اتجاهاً مخلصاً الى الدعوة الى السلام لما عانى الناس من نكبات الحروب وما قاسوا من أهوالها. أتراه يفلح في دعوته، وينجح في وجهته؟؟ حبذا لو صحت الأحلام!

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ٥٠